المجمع 1 (1430/2009) 63-84

فصول في البلاغة العربية

المبالغة*

فهد أبو خضرة

تمهيد:

المبالغة مصطلح واسع الدلالة يطلق على كل تجاوز للمقدار المألوف والحد المتعارف عليه في المعنى. وهو بهذا المدلول يضم أنواعا عديدة أبرزها أربع، وهي: التبليغ، الإغراق، الغلو، الاستحالة.

وقد استعمل هذا المصطلح في بعض المراجع بمدلول ضيق مطابق تماما لمصطلح التبليغ ومصطلح الإفراط في الصفة، وهكذا صرنا نجده هنا مصطلحا بديلا لمصطلح التبليغ، إلى جانب الإفراط في الصفة، ونجده هناك مصطلحا معتمدا يرافقه مصطلح التبليغ والإفراط في الصفة كمصطلحين بديلين.

وقد اختلف تقييم البلاغيين للمبالغة بمفهومها الواسع اختلافا بيّنا، ويمكن إجمال ما قالوه في أربعة بنود يمثل كل منها وجهة نظر معينة تبناها عدد من البلاغيين:

1. المبالغة توجّه سلبي، فهي لا تسفر إلا عن التهويل والمحال، ولا تدلّ إلا على قصور المبدع الذي استعملها وعجزه عن ابتكار المعاني القيّمة (انظر ما أورده الحموي على لسان بعضهم: ص 225)
2. المبالغة توجه إيجابي، فهي تدل على براعة فائقة ومقدرة فنية جديرة بالتقدير والاحترام (انظر رأي الحموي نفسه: ص255 أيضا) وقد قال ابن قتيبة: وكان بعض أهل اللغة يأخذ على الشعراء أشياء من هذا الفن وينسبها إلى الإفراط وتجاوز المقدار، وما أرى ذلك إلا جائزا حسنا (انظر مطلوب: ص 582).
3. المبالغة توجه فني لا يخضع لتقييم ثابت. فقد تكون في بعض استعمالاتها ناجحة فتعد إيجابية، وتكون في استعمالات أخرى فاشلة فتعد سلبية. ولذا فمن الحكمة أن يُحكم على كل حال على حدة، دون إصدار أحكام مسبقة (انظر المصري: ص 150، 157)

* فصل من كتاب سوف يصدر قريبًا عن مجمع القاسمي للغة العربية وآدابها.

4. المبالغة ضروب مختلفة، منها ما هو إيجابي ومنها ما هو سلبي، ومن الأفضل عدم التعميم. والغلو خاصة هو المذموم، وهو الذي يقع فيه الخلاف لا ما سواه (انظر القيرواني، ج2:55، وانظر ما أورده مطلوب ص 584 عن الطراز، وانظر الحموي: ص225–226، وما أورده عتيق: البديع ص 73).

ويلاحظ أن الغلو عند معظم هؤلاء البلاغيين، وعند كثيرين غيرهم، يضم الإحالة أيضا.

ومع هذا فإننا نجد أحد الباحثين المعاصرين يجمع نظرة القدماء في بند واحد لا غير، ويرى أنها نظرة سلبية. ومما يقوله في هذا الشأن تحت عنوان جانبي هو:"الغلو عند البلاغيين العرب القدماء" ما يلي: "سنبين في هذه الفقرة أن تصوّر الغلو وما يرتبط به من تصورات كالإغراق والتخييل والإحالة مصطلحات حاضرة بقوة في وصف القدماء، سواء أتعلق الأمر بوصفهم للمعاني بصفة عامة أم تعلق بوصفهم للتشبيه والاستعارة بصفة خاصة. لقد حضرت هذه المصطلحات في كتب القدماء حضورا إقصائيا، بمعنى أنهم لم يستعذبوا الغلو والإغراق فأقصوا كل ما يدخل تحتهما" (سليم: ص14) ويقول بعد صفحتين: "قد يظن بعض الناس أن استكراه الغلو واستحسان الوضوح فكرتان واردتان فقط في الوصف البلاغي المتقدم، عند بلاغيين أمثال الجاحظ والرمّاني، إلا أن المعطيات النقدية والبلاغية الحاضرة بين أيدينا تؤكد أن هذا التصور يكاد يكون عاما عند جميع المصنفين العرب القدامى" (سليم: ص16)

أما الأنواع الأخرى التي تدخل ضمن هذه الدائرة، فهي: التفريط–إيقاع الممتنع– حصر الجزئي وإلحاقه بالكليّ– الاقتصاد.

وهذا النوع الأخير (الاقتصاد) يتميز عن كل ما عداه، فهو يلتزم بالحد الأوسط الذي لا تطرف فيه، مجانبا الإفراط من جهة والتفريط من جهة أخرى، ومعتبرا الاعتدال هو الخط الأمثل للتعبير.

وسأحاول في هذا الفصل أن أوضح موقف البلاغيين في كل نوع من الأنواع التي تنضوي ضمن هذه الدائرة.

1. التبليغ[1]

المصطلحات البديلة: المبالغة– الإفراط في الصفة.

هو أن يصرف المتكلم كلامه (من الوصف والإخبار وما إليهما) عما يطابق المألوف، ويوجهه إلى ما لا يطابقه، شرط أن يكون وقوع ما يقوله ممكنا عقلا وعادة.

من الأمثلة على ذلك قول حسان بن ثابت مادحا:

يُغشون حتى ما تهرُّ كلابهم لا يَسألون عن السواد المقبلِ

إن ما يقع عند هؤلاء المدوحين يتجاوز المألوف، فليس جميع الناس يغشون حتى ما تهرُّ كلابهم ....، ولكنه ممكن عقلا وعادة.

وقول شاعر آخر:

نزلتُ على آل المهـلّب شـاتياً بعيدا عن الأوطان في زمنٍ مَحْلِ

فما زال بي إكرامهم وافتقادُهم وإحسانُهم حتى حسبتهمُ أهلي

فمثل هذا التعامل مع الضيف الغريب عن أوطانه يتجاوز المألوف ولكنه ممكن عقلا وعادة

وقول الفرزدق:

إنْ عُدّ أهل التقى كانوا أئمتَهمْ أو قِيل مَن خيُر أهل الأرض قيل هُمُ

وقوله:

يُغضي حياءً ويُغضى مِن مهابتهِ فما يُكلَّم إلا حين حينَ يَبتسمُ

وقول قُريط بن أنيف:

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طـاروا إليـه زرافـاتٍ ووُحـدانـا

وقول أبي فراس الحمداني:

وإنـي لجـرّارٌ لـكـل كتـيـبـةٍ معـوّدةٍ ألا يخـلَّ بـهـا الـنـصرُ

[1] ابن المعتز: البديع: ص65–68، المصري: ص147–158، العسكري: ص378–380، الحموي: ص235–237، عتيق: البديع ص 70–77، شرف: ص357–362، المطعني: ص51–55، مطلوب: ص156–158، 247–248، 582–585 .

وإنــي لـنَــزّالٌ بـكـــل مَخوفـةٍ كـثيــرٍ إلى ُنـزالها الـنظَـرُ الشــزْرُ
فأظمأ حتى ترتوي البيضُ والقنا وأسغبُ حتى يشبعَ الذئب والنسْرُ
وإنـا لـقــوم لا تـوسُــطَ بـيننــا لنـا الصـدرُ دونَ العالميـن أو القبـرُ

وقول ابن الرومي واصفا ابن يوسف بالبخل:

لو أنَ قصركَ يا بنَ يوسفَ مُمْتَلٍ إبَرا يضيقُ بها فِناءُ المنزلِ
واتاكَ يوسفُ يستعيــركَ إبــرة لِيَخيطَ قَدَّ قميصه لم َتفعلِ

وقول امرئ القيس واصفا حصانه:

فعادى عداءً بين ثور ونعجةٍ دراكًا ولم ينضح بماء فُيغسل

يقول: إن حصانه هذا أدرك ثورا وبقرة وحشية في مضمار واحد دون أن يعرق عرقا غزيرا. وهذا ممكن عقلا وعادة حين يكون الحصان متميزا.

وقول المتنبي:

وأصرعُ أي الوحش قفيْتُهُ به وأنزلُ عنه مثـلَه حين أركبُ

يقول: إنه يدرك بحصانه أي وحش يتبعه، دون أن يتعب ذلك الحصان أدنى تعب، فيكون عند نزول الفارس عنه مثله عند ركوبه. وهذا أيضا ممكن عقلا وعادة حين يكون الحصان متميزا.

وقول الحسين بن مطير:

مُخصّرةُ الأوساط زانت عقودها بأحسنَ مما زيّنتـها عقودُها

وقول آخر:

شـهورٌ َينقضيـنَ ومـا شـعـرنا بأنـصـافٍ لهــنّ ولا سِـرارِ

السرار: آخر الشهر القمري

وقول ابن نباتة مادحًا:

لم يُبقِ جودُك لي شيئا أؤملُهُ تركتني أصحب الدنيا بلا أمَلِ

ملاحظات:

1. خلط بعضهم بين التبليغ والإغراق، وخلط آخرون بينه وبين الغلو، والفرق بين هذه المصطلحات واضح: فالتبليغ ممكن عقلا وعادة، والإغراق ممكن عقلا لا عادة، والغلو غير ممكن لا عقلا ولا عادة.
2. اعتبر بعضهم التبليغ مصطلحا بديلا للإيغال.
3. قال الحموي: إن المبالغة بمعناها الضيق (أي التبليغ) ضرب من المحاسن إذا بعدت عن الإغراق والغلو (ص226). وهذا موقف عدد كبير من البلاغيين.
4. حين يكون التبليغ متعلقا بالمشاعر الشخصية فإنني أرى اعتباره مقبولا عقلا وعادة، دون نقاش موضوعي ودون تشدد. فالمتكلم في هذه الحالة يعبّر عن إحساسه، وليس من المستبعد أن يكون الإحساس نفسه موجودا عند أفراد آخرين حين يقفون الموقف نفسه.

من الأمثلة على هذا قول ماجد عليان:

ما كانت الدنيا تساوي ذرّةً لو لم تكوني

وقول أحمد حجازي:

يا ويله من لم يحبْ
كلُ الزمانِ حولَ قلبه شِتاءْ

وكذلك الأمر حين يكون التبليغ متعلقا برؤيا مستقبليّة، وهو كثير جدا في الشعر الحديث.
من الأمثلة عليه قول المؤلف:

ويمضي بنا النهر في وحدةٍ
تردّ الزمان وتُحيي المنى
ليُعلن للبحر أن الوعود
تخبئ كلَّ جناها لنا
وأن الغدَ الحُرَ مهما نأى
سيولَدُ من قُدس أرضي هنا

2 الإغراق[2]:

المصطلحات البديلة: الإفراط في الإغراق — الإغراق في الصفة.

هو مجاوزة المتكلم الحد المألوف في الإخبار والوصف وما إليهما، وشرطه أن يكون ما يقوله ممكن الوقوع عقلا لا عادة.

ويقع الإغراق وسطا بيت التبليغ والغلو.

وأفضله عند البلاغيين ما اقترن بما يقرّبه من المعقول ويجعله مقبولا، نحو: لو، كاد، لولا، قد (مع المضارع) وما شابه ذلك.

ومن الأمثلة عليه مع استعمال "كاد" قوله تعالى:

"يكاد البرق يخطف أبصارهم" (سورة البقرة، الآية 20)

خطف البرق للأبصار مقيد هنا باستعمال "يكاد". ولكن هذا الخطف ممكن الوقوع، بحسب العقل، حتى بدون استعمال "يكاد"، وإن كان ممتنع الوقوع في العادة.

وقوله: "إذا أخرج يده لم يكد يراها" (سورة النور، آية 40). ويصدق عليها ما قيل عن الآية السابقة "[3].

ومن الأمثلة عليه مع استعمال "لو" قول امرئ القيس:

من القاصرات الطرف لو مرّ مُحول من الذرّ فوق الإتب منها لأثّرا

الذرّ: النمل، المحول، ما عمره سنة، الإتب: الثوب الرقيق.

يقول: لو مرّ الـمُحول من النمل فوق ثوبها الرقيق لأثر في جلدها لرقّة بشرتها.

وهذا الأمر ممكن عقلا، وان لم تجر به العادة.

ويجدر بالملاحظة أنه لم يقل إن النمل قد مرّ فأثّر، وإنما قال: لو مرّ ..... لأثّر.

وقول المهلهل مستعملا "لولا":

---

[2] المصري: ص321–322، الحموي: ص227–229، شرف: ص262–263، عتيق: البديع ص77–81، مطلوب: ص153–155، وهبه: ص230.

[3] وردت الآيتان في بعض الكتب البلاغية ضمن الأمثلة على الغلو . وهذا غير صحيح. فالمعنى فيهما غير ممتنع عقلا.

ولولا الريح أُسمع من بُحجْرٍ صليل البَيْضِ تُقرع بالذكورِ

والمسافة بين مكان المعركة الموصوفة وحجر[4] مسافة كبيرة جدا (مسيرة عشرة أيام)، ولا يمكن أن يسمع من بحجر الصليل المذكور، في الحالات المألوفة . إلا أن الشاعر استعمل أداة الشرط: "لولا" لجعل هذه المجاوزة مقبولة . وبدونها يعد هذا القول غلوا.

وقد اعترض بعضهم على هذا الإغراق الذي يصل حد الغلو أمام المهلهل، فردّ عليهم قائلا ما معناه: ابعدوا الريح وانظروا ما يكون، فقد قلت: ولولا الريح

وقول قيس بن الخطيم:

طعنتُ ابن عبد القيس طعنة ثائرٍ لها نَفَذٌ لـولا الشَّـعاعُ أضاءها

ملكتُ بها كفّي فأنهــرت فتْقَها يرى قائمٌ مِنْ دونها ما وراءها

الشعاع: الدم المتطاير من الجرح. الثائر: الآخذ بالثأر.

يقول: إن هذه الطعنة قد أحدثت فتحة في جسد المطعون، ولولا الدم المتطاير لكان الضوء يدخل منها . هذه الطعنة تحكّمتُ بكفي جيدا عند تنفيذها فجعلت فتحتها واسعة حتى ليرى الواقف أمامها ما هو وراءها.

وقد استعمل "لولا" في البيت الأول ولم يستعملها في البيت الثاني. ولعله اكتفى بهذا الاستعمال لارتباط الصورة في البيتين لغويا ومعنويا.

ولولا استعماله لأداة الشرط لكان قوله أقرب إلى الغلو.

وقول عنترة غير مستعمل أي قيد:

وأنا المنيةُ في المواطنِ كلها والطعنُ مني سائقُ الآجالِ

وقوله هذا مقبول عقلا وان امتنع عادة.

وقول أحمد شوقي:

الحسن حلفتُ بيـوسـفه والسـورة أنـك مُـفـردُهُ

وقول شاعر آخر:

[4] حجر: قصبة اليمامة آنذاك.

خطراتُ النسيم تجرح خدَّيْـ ـه ولمسُ الحرير يُدمي بنانَهْ

وقول آخر:

يموت وما عَلِمتْ نفسُهُ سـوى عِلْمِـهِ أنه ما عَلِمْ

والبيتان الأخيران يصل فيهما الإغراق أقصى حدوده.

ملاحظات:

1. خلط الكثيرون بين الإغراق والتبليغ، وكذلك بينه وبين الغلو، خاصة في الأمثلة.
2. أورد بعضهم في الإغراق قوله تعالى: "وبلغت القلوب الحناجر" (سورة الأحزاب، الآية 9)، وقالوا إنها على نية تقدير "كادت"، وأورد آخرون هذه الآية في الغلو (انظر سليم: ص 18). والأولى أن تعتبر من التخييل، ولا حاجة لأي تقدير.
3. هناك ضرب من الإغراق أطلق عليه بعض البلاغيين اسم "الجحد"وهو أن ينكر المتكلم شيئا على سبيل المبالغة (بمدلولها الواسع) ومجاوزة المألوف، تعقيبا على قول سابق في النص نفسه. من الأمثلة عليه قول الشاعر:

يقولون لو سلّيْتَ قلبك لأرعوى فقلتُ: وهل للعاشقين قلوبُ؟

الجحد في الشطر الثاني، فالشاعر ينكر أن يكون للعاشقين قلوب، وذلك تعقيبا على ما ورد في الشطر الأول .

وقول آخر:

يقولون هل بَعد الثلاثين ملعبٌ فقلت: وهل قبل الثلاثين مَلعبُ؟

4. هناك مقولات يصعب الجزم بصحتها أو بعدم صحتها، إما لأنها لم تخضع لأي فحص وإما لأنها غير قابلة للفحص.

مثل هذه المقولات يمكن أن ترد تحت عنوان الإغراق باعتبارها ممكنه عقلا لا عادة.

من الأمثلة عليها قول نزار قباني في افتتاحية كتابه "ما هو الشعر":

كل الأطفال العرب يولدون شعراء ..... وكل الأطفال العرب يخططون ليكونوا شعراء.

والقول الذي رددته وسائل الإعلام، وهو:

إن في موريتانيا مليون شاعر.

5. يمكن أن يقسم الإغراق إلى ضربين:

(أ) ما تُستعمل فيه لفظة تقربه من المعقول، نحو لو، لولا، كاد ....
وهذا الضرب يمكن أن يسمى "المقيّد".

(ب) ما لا تستعمل فيه أي لفظة تقربه من المعقول.
هذا الضرب يمكن أن يسمى "غير المقيد".

6. إذا حذف القيد من أمثلة المقيّد يظل المعنى فيه مما يمكن وقوعه بحسب العقل، وإن بعد. وهذا ما يميز الإغراق عن الغلو . فحذف القيد من الغلو يجعل المعنى فيه غير قابل للوقوع أبدا.

3. الغلو[5]

هو وصف الشيء أو الإخبار عنه بما يمتنع وقوعه عقلا وعادة. وأفضله عند البلاغيين ما استعملت فيه لفظة تدل على عدم وقوعه فعلا، نحو: كاد، لو، لولا، وما إليها .
من الأمثلة عليه مع استعمال "كاد" قوله تعالى:
"يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار" (سورة النور، الآية 35). فالزيت لا يضيء إن لم تمسسه نار. والآية لم تقل إنه أضاء وإنما قالت إنه يكاد يضيء.

وقول المعري:

تكاد قِسيّه من غير رامٍ تُمكّن في قلوبهم النِّبالا

فالقسيّ لا تطلق النبال من غير رام. ولذلك قال الشاعر تكاد .... ولم يقل إنها أطلقتها ومكّنتها في قلوبهم.

وقول الفرزدق:

[5] المصري: ص323–326، الحموي: ص229–231، عتيق: البديع، ص81–86، مطلوب: ص539–541، سليم: ص14–31، العسكري: ص369–377، القيرواني: ج2: ص60–65، شرف: ص364–365.

يكاد يُمْسكُهُ عِرفانَ راحتهِ ركنُ الحطيم إذا ما جاء يستلمُ

فركن الحطيم لا يمسك من يستلمه.

وقول أبي صخر الهذلي:

تكاد يدي تندى إذا ما لمستَها وينبت في أطرافها الورق النضْرُ

فاليد لا ينبت في أطرافها الورق النضر.

وقول سعيد عقل:

مِن خِضمّ ليلكيّ الغروب

كاد مُذ أومأتِ أن يُزهرا

فالبحر لا يزهر بأي حال.

وقول أعرابي يذم رجلاً لئيمًا: يكاد يُعدي لؤمُهُ من تَسمَّى باسمِهِ.

ومن الأمثلة عليه مع استعمال "لو" قول المتنبي:

عقدتْ سنابكُها عليه عِثْيرا فلو ابتغى عَنَقا عليه أمكنا

يقول: إن سنابك الخيل عقدت على الممدوح عثيرا، أي غبارا، حتى لو أراد أن يمشي عليه عنقا، أي مشيا سريعا، لأمكنه ذلك.

وقول زهير:

لو كان يَقعد فوق الشمس من شرف قومٌ بأحسابهم أو مجدهم قعدوا

يقول: لو كان أي قوم يستطيع أن يقعد فوق الشمس، لعلوّ حسب أو مجد، لقعد هؤلاء الممدوحون، لأنهم الأعلى حسبا ومجدا.

وقول أبي تمام:

ويهتز مثل السيف لو لم تسلَهُ يدانِ لسلّته ظُباه من الغِمْدِ

وقول آخر:

قد كان لي في مضي خاتَمٌ واليومَ لو شئتُ تمنطقتُ بهْ

وذُبتُ حتى صِرتُ لو زُجَّ بي في مقلة النائم لم يَنتبِهْ

وقول أبي نواس يصف الخمرة:

صفراءُ لا تنزل الأحزانُ ساحتها لو مسَـها حَجَـرٌ مَسّتْه سَرّاءُ

وقول البحتري:

فلو ان مشتاقا تكلّف فوق ما في وُسعِهِ لسعى إليكَ المِنبرُ

وقول نزار قباني:

لا تسألوني ما اسمُهُ حبيبي أخشى عليكم ضوعةَ الطيوبِ
واللّه لو بحت بأي حرف تكدّس الليلك في الدروب

وقول صفي الدين الحليّ:

عزيزُ جارٍ لو الليلُ استجار به منَ الصباح لعاش الناسُ في الظلَمِ

وقول شاعر آخر:

لو كانَ يُهدى إلى الإنسان قيمتُهُ لكنتُ أهدي لك الدنيا وما فيها

ومن الأمثلة التي لم تستعمل فيها ألفاظ تدلّ على عدم وقوع ما قيل فعلا، قول أبي نواس:

وأخَفْتَ أهل الشِّرْك حتى إنه لتخافك النطفُ التي لم تُخلقِ

وقد حاول بعضهم أن يخففوا الغلو في هذا القول، بل وأن يقرّبوه من الإغراق، فقالوا: إن الإنسان الذي يخاف يتأثر نسله بخوفه، فكأنّ النطف التي يخلق منها نسله قد شعرت بالخوف.

وقول ابن دريد:

تغدو المنايا طائعاتٍ أمرهُ ترضى الذي يرضى وتأبى ما أبى

حيث جعل الممدوح فوق البشر، وهذا قريب جدا من إيقاع الممتنع (انظر ما يلي).

قول النابغة الجعدي:

بلغنا السماءَ مجدُنا وسناؤنا وإنا لنرجو بعد ذلك مَظْهرا

وقول أبي الطمحان:

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظّمَ الجزعَ ثاقبُهْ

ملاحظات:

1. فرق بعضهم بين التبليغ والإغراق والغلو باعتبار الحد، فقالوا: إن التبليغ هو بلوغ القصد من غير تجاوز للحد، أما الإغراق فهو الزيادة في المبالغة حتى يخرج المعنى عن حده، وأما الغلو فهو الزيادة في الخروج عن الحد.

   وفرق آخرون بين هذه المصطلحات الثلاثة باعتبار العقل والعادة، فقالوا: إن التبليغ ممكن عقلا وعادة، أما الإغراق فممكن عقلا لا عادة. وأما الغلو فغير ممكن لا عقلا ولا عادة.

2. قال العسكري: الغلو تجاوز حد المعنى والارتفاع فيه إلى غاية لا يكاد يبلغها.

   ولا شك أن استعمال "لا يكاد" هنا يؤدي إلى الخلط بين الغلو والإغراق . والأصح أن يقال: إلى غاية لا يبلغها.

3. كان قدامة بن جعفر من أبرز البلاغيين القدامى الذين نظروا إلى الغلو نظرة إيجابية (انظر مطلوب: ص539، حيث أورد قوله: إن الغلو عندي أفضل المذهبينْ).

4. الغلو عند بعض البلاغيين ضربان: مقبول ومردود. أما المقبول فهو ما يتضمن قرينة تقربه من الممكن، وأما المردود فهو ما يخلو من أي قرينة كتلك.

   والمقبول يتفاوت في التقييم، فمنه ما هو حسن ومنه ما هو أحسن. .

5. قال بعضهم: إن الغلو إذا أدى إلى الكفر كان قبيحا مردودا، وإلا كان مقبولا.

6. إذا استعمل الغلو في مديح مرسل سماوي كان مقبولا، بقيد وبغير قيد.

7. قال أحد الباحثين المعاصرين في سياق حديثه عن الغلو عند البلاغيين القدماء: "إن كل تطلع إلى بناء علاقات جديدة قد لا تكون واردة عند الجمهور، وكل محاولة إبداع معان جديدة، اعتبر عندهم غلوا وإغراقا لا فائدة ترجى من ورائه، وعملا لا يؤثر في الناس (سليم: ص17). وأرى أن في هذا القول تعميما متجاوزا للحد.

8. يجب الانتباه إلى فرق دقيق بين نمطين من هذا الغلو:

   الأول: ما كان فعله قابلا للوقوع في حالات معينة، نحو ما جاء في الآية الكريمة أعلاه: فالزيت إذا مسّته النار أضاء، ونحو قول المعري أعلاه: فالقسيّ إذا استعملها الرامي استطاعت أن تمكن النبال في قلوبهم .

الثاني: ما كان فعله غير قابل للوقوع في أي حال، نحو أقوال الفرزدق والهذلي وسعيد عقل أعلاه: فركن الحطيم لا يستطيع أن يمسك أحدا، والورق الخضر لا ينبت في أطراف اليد في أي حال، والبحر لا يمكن أن يزهر أبدا.

ولا شك أن التجاوز في النمط الثاني أشدّ والخيال أبعد، وهو مما يعجب به الكثيرون من الدارسين المعاصرين.

4. الاستحالة[6]

المصطلحات البديلة: الإحالة–الاستحالة والتناقض.

هي الجمع بين المتضادين أو ما هو في حكمهما جمعا لا يمكن تصوره ولا تفسيره، أو بناء الكلام بناء متناقضا مخالفا لمنطق اللغة ومنطق الزمن

من الأمثلة على هذا قول عبد الرحمن بن عبد الله القس:

فإنّي إذا ما الموت حلّ بنفسها يُزال بنفسي قبل ذاك فأُقبرُ

فإنه نصَّ على أن جواب الشرط يسبق فعل الشرط، بينما هو في منطق اللغة وفي التصور العقلي مترتب عليه.

والمنطق المألوف هنا يضع كلمه "بعد" في موضع "قبل"، إلا أن هذا المنطق يقتل البيت قتلاً من الناحية الشعرية.

وقول آخر:

لكُم في الحشا من قبل أن تُخلق الحشا سريرةُ حبّ قبل أن يُخلق الحُبُّ

فقد جمع بين الوجود والعدم جمعا يستحيل تصوره أو تفسيره.

وقول آخر:

أسكر بالأمس إن عزمتُ على الشرب (م) غدا، إنّ ذا من العجب

فهو يسكر قبل أن يقرر الشرب. وينطبق على هذا البيت ما قيل عن بيت القس أعلاه.

وقول القائل: أتيتك غدا، وسآتيك أمس.

---

[6] مطلوب: ص67–69، عكاوي: ص75–78، القيرواني: ج2، ص61، بدوي: ص434–435.

وفيه تناقض لغوي وزمني واضح. وقد قصد من استعماله في الماضي التظرف أو لفت النظر، بينما يقصد من استعماله اليوم تفجير اللغة وإثارة الدهشة عند المتلقي وتحدّي كل المسلّمات وتخطّيها.

وقول أحد القُصّاص (اسمه: أبو عقيل): الرعد مَلَكٌ أصغر من نحلة وأعظم من دبّور.

وهو مما لا وجود له في الواقع ولا يمكن تصور وجوده في الفكر أيضا. لأن النحلة أصغر من الدبّور، فما كان أصغر منها فهو أصغر منه حتما. وهذه بديهية، ولذلك قال المستمعون لأبي عقيل: لعلّك تريد أصغر من دبّور وأعظم من نحلة!

فقال: لو كان كذا لم يكن بعجب.

ملاحظات:

1. ميز بعض البلاغيين بين الاستحالة والامتناع فقالوا"إن المستحيل هو الشيء الذي لا يوجد ولا يمكن مع ذلك أن يتصور في الفكر، مثل الصاعد النازل في حالة واحدة، فإن هذه الحال لا يمكن أن تكون ولا تتصور في الذهن. أما الممتنع فهو الذي يمكن أن يتخيل وإن لم يكن له وجود في الواقع، ومنزلته دون منزلة المستحيل في الشناعة، وذلك نحو أن تركّب أعضاء حيوان ما على جثة حيوان آخر، فإن ذلك جائز في التوهم ولكنه معدوم في الوجود (وهم طبعا يقصدون الوجود الطبيعي لا المصنوع، أي الذي خلقه الله لا الذي كوّنه الإنسان). وأضافوا: أن الممتنع يصحّ أن يقع في الشعر والنثر على سبيل المبالغة، أما الاستحالة فلا يصح أن تقع في الكلام أبدا (انظر ما أورده، مطلوب: ص 68 نقلا عن الخفاجي والبغدادي).
2. إذا أمكن إيجاد تفسير منطقي للتضاد أو التناقض أو ما يوهم بهما، في قول معين، خرج ذلك القول من إطار الاستحالة، وأصبح ممكنا.

من الأمثلة على هذا قول الشاعر:

حجبتْ تحيّتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرَها لنا وأقلَّها

فالتفسير: ما أكثرها من ناحية القيمة وما أقلّها من ناحية البذل والعطاء.

وقول الشاعر نفسه:

بيضاءُ باكرَها النعيمُ فصاغها بلباقةٍ فأدَقَّها وأجلَّها

التفسير: أدقّها حيث يجب أن تكون دقيقه، وأجلّها حيث يجب أن تكون جليلة.

3. تعتبر الاستحالة من عيوب المعاني عند البلاغيين القدماء، ولكنها لا تعتبر كذلك عند الشعراء والنقاد المعاصرين، خاصة الحداثيين منهم، فهي مرتبطة عندهم بمنطق اللاوعي وبرغبتهم في تفجير اللغة وإعادة تشكيل العالم والتمرد على كل المسلّمات.

5. التفريط[7]

هو ضد الإفراط، ويَعْني التقصير والتضييع، أي أن يكون المعنى في الكلام دون ما تقتضيه منزلة المعبَّر عنه أو حالهُ.

من الأمثلة عليه قول الأعشى:

وما مُزْبدٌ من خليج الفرا تِ جَـوْنٌ غـواربُـهُ تلتطـمْ

بـأجـودَ مـنـه بماعونِـهِ إذا مـا سـمـاؤهُـمُ لم تَغِـمْ

فإنه مدح ملكًا بالجود بماعونِهِ، وهذا مما لا يُمدح به الملوك ولا حتى أوساط الناس. وبهذا فقد قصر في المدح تقصيرا كبيرا.

وقوله أيضا:

ويأمر لليحموم كلَّ عشيةٍ بقَتٍّ وتعليقٍ وقد كاد يَسْنقُ

اليحموم: اسم فرس الشاعر، القت: نوع من طعام الخيل، التعليق: العلف الذي يقدّم للخيل، يسنق: يصيبه البَشَم لكثرة الأكل.

وقد علّق الأصمعي على هذا البيت قائلا: أقلُّ حمارٍ لطحّان ينال هذا. يعني أن هذا ليس مما يمدح به الملوك ولا حتى أوساط الناس.

وقول حسان بن ثابت:

لنا الجفنات الغرُّ يلمعن في الضحى وأسيافُنا يقطرنَ من شِدّةٍ دما

قالوا: صَغَّرَ الجفنات، وجعلها تلمع في الضحى فقط. وقلّل السيوف باستعمال جمع القلّة. ورأيي أن في ما قالوه نظر.

وقول آخر:

[7] ابن منقذ: ص146-147، مطلوب: ص395-396، عكاوي: ص398-399.

وما يأمنُ الحَجّاجَ، والطيرُ تتّقي عزيمتَهُ، إلا ضعيفُ العزائمِ

إن اتقاء الطير للحجّاج ليس فيه أي إظهار لهيبته، فالطير تتّقي أي شخص حتى الصبيّ.

ملاحظات:

1. جمع بعضهم التفريط، وهو دون الحد أي دون ما يقتضيه المعبر عنه، مع الإفراط، وهو فوق الحد، أي فوق ما يقتضيه المعبَّر عنه، ومع الاقتصاد، وهو الوسط المعتدل، أي الحد الفاصل بين التفريط والإفراط، ويكون المعنى فيه حسب ما يقتضيه المعبر عنه. وأوردوا هذه المصطلحات الثلاثة ضمن نوع واحد سَمّوْه "الامتحان"، ولكن هذا الجمع لم يشع، فظل محصورا في نطاق ضيق جدا.
2. ورد في بعض كتب البلاغة مصطلح قريب جدا من مصطلح التفريط، هو مصطلح "النزول" (انظر مطلوب: ص659، نقلا عن الزملكاني). ويمكن تعريف هذا المصطلح كالتالي: هو وصف الشيء بأقلّ مما هو في الحقيقة، ومن الأمثلة عليه قوله تعالى: "مَثَل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجه ..." (سورة النور، الآية 35)، حيث شبّه نور الله بمشكاة.

وقول أبي تمام في وصف الأمير أحمد بن المعتصم:

إقدامُ عمرو في سماحة حاتمٍ في حلم أحنف في ذكاء إياسِ

حيث قورن الممدوح بمن هم دونه (في رأي بعضهم).

ويمكن أن يوسع تعريف التفريط ليضمّ النزول أيضا، ويستغنى بذلك عن مصطلح إضافي.

6. إيقاع الممتنع[8]

المصطلحات البديلة: الامتناع هو كون المعنى ممتنعا، أي معدوما في الوجود، وان كان جائزا في التصور. ويكون إما دُعاءً وإما ادّعاءً وإما على سبيل التمني.

من الأمثلة عليه قول أبي نواس:

يا أمـيــنَ اللّـه عـشْ أبـداً دُمْ علـى الأيـام والـزمَــنِ

فعيش الإنسان أبدا ممتنع وجوده، ولكنه جائز في التصور. وقد جاء هنا على سبيل الدعاء.

وقول أحمد شوقي:

تحرّكْ أبا الهَوْل، هذا الزمانُ تحركَ ما فيه حتى الحجَرْ

فتحرك الحجر ممتنع في الوجود جائز في التصور. وقد جاء هنا على سبيل الادّعاء.

وقول المؤلف في قصيده "الفتى والوحش"

حدّثَ الراوون قالوا:
وأقامَ القومُ تمثالا له في الساحة الكبرى،
أمام النهر، عشرين ذراعا،
مَرمَرا أبيضَ،
في يمناهُ سيفٌ،
وعلى يُسراهُ رأس بَشَريٌّ.
ورآهُ القوم في بعض الليالي
يَرفع اليسرى إلى الأعلى، ويُلقي
ذلك الرأسَ على الأرض مُهانا.
ورأوْهُ يتركُ الساحةَ ساعاتٍ
وفي الفجرِ يعودُ،
وإذا ما أُزهقَ العدلُ

[8] مطلوب: ص 183،216، عكاوي: ص 218، 249–250.

أو اهتزتْ حدودُهُ
رَفَع اليمنى،
وهزّ السيف هزّاتٍ عنيفَةْ،
ودوى في الأفق صوتٌ نَبَويٌّ
يملأ الأرضَ خشوعا وأمانا.

فهذا الذي حدّث به الراوون ممتنع في الوجود، جائز في التصور، وقد جاء هنا على سبيل الادّعاء.

وقوله في قصيدة "الفصل الأخير من سيرة الوزير قراقوش":

تقول المصادرُ:
إن الوزيرَ المسمّى قراقوش،
بعدَ انتهاء الأجلْ،
وبعدَ المراسيمِ والدفنِ،
قد عاد حيّا.
وتزعمُ أن مئات الجنود
رأوْهُ على شرفة القصر بعد المساءْ.
وفي آخر الليلْ
رآهُ الكثيرون منهمْ
يجول برفقة إحدى الأميراتِ
بين زهور الحديقةْ.
وأقسمَ كلُ الذين رأوهُ
–إذ استخبروهمْ–
برأسِ الوزيرِ، وعدل الوزيرْ،
على أن ما قيل قد كان حقّا.

فهذا الذي تقوله المصادر، حسب القصيدة، ممتنع في الوجود، جائز في التصور. وقد جاء هنا على سبيل الادعاء.

وقول أحد الشعراء:

أسِرْبَ القطا هل من يُعير جناحه لعلّي إلى من قد هويتُ أطيرُ؟

فالشاعر هنا يريد أن يستعير من القطا جناحا لعله يطير إلى من يُحب. وقد جاء هذا على سبيل التمني، وهو قريب جدا من الدعاء.

ملاحظات:

1. عن الفرق بين إيقاع الممتنع/الامتناع والاستحالة، انظر الاستحالة، ملاحظه رقم1.
2. يمكن اعتبار هذا النوع ضربا من الغلو، ولا حاجه عندئذ لنوع مستقل. أما المصطلح فيشار إليه عند الحديث عن هذا الضرب هناك.

7. حصر الجزئي والحاقة بالكلي[9]:

هو أن يتناول المتكلم جسما ماديا أو أمرا معنويا فيحصر أجزاءه (أي يحددها) ثم يجعل كل جزء منها مساويا للكل المناسب له. وذلك على سبيل المبالغة.

من الأمثلة على هذا قول الشاعر:

فبشّرْتُ آمالي بمَلْكٍ هو الورى ودارٍ هي الدنيا ويومٍ هو الدهرُ

فقد تناول الشاعر آماله (أي ما يرجوه في هذا العالم) فحصرها في ثلاثة أجزاء، هي: الملك الممدوح، وداره، ويوم لقائه. ثم جعل كل جزء منها مساويا للكل المناسب له: فالملك هو كل الناس، وداره هي كل الدنيا، ويوم لقائه هو كل الدهر.

وقول صفي الدين الحلّي:

شخص هو العالم الكلّيّ في شَرَفٍ ونفسُهُ الجوهر القدسيُّ في عِظَمِ

فقد تناول الشاعر ممدوحه فحصره في جزأين: شخصه ونفسه، ثم جعل شخصه مساويًا في شرفه للعالم كله، وجعل نفسه مساوية في عظمها للجوهر القدسيّ كله.

ملاحظات:

1– اعتبر الحموي هذا النوع نوعا غريبا.

[9] المصري: ص600–602، الحموي: ص371–372، مطلوب: ص470–471.

2– المبالغة هنا تكمن في إلحاق الجزئي بالكلي. أما حصر الجزئي فليس فيه أي مبالغة.

8. الاقتصاد[10]

هو الاعتدال في التعبير عن المعنى، والالتزام بالحد الأوسط الذي يبتعد عن الإفراط من جهة وعن التفريط من جهة أخرى.

من الأمثلة عليه قوله تعالى: "هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون"(سورة البقرة، الآيات 2–5).

وقول المقنّع الكِنْدي:

يعاتبُني بالديْن قومي وإنما ... دُيونيَ في أشياءَ تكسبهم حمدا
أسُدُّ به ما قد أخلّوا وضيّعوا ... ثغورَ حقوقٍ ما أطاقوا لها سَدّا
وفي جفنة ما يُغلق البابُ دونها ... مكللةٍ لحماً مُدفّقةٍ ثُرْدا
وفي فرسٍ نَهْدٍ عتيق جعلتُهُ ... حجابا لبيتي ثم أخدمتُهُ عبدا
وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمّي لمختلفٌ جِدا
فإنْ أكلوا لحمي وفرتُ لحومهمْ ... وإنْ هدموا مجدي بنيتُ لهم مجدا
وإنْ ضيعوا غيبي حفظتُ غيوبهم ... وإنْ همْ هَوُوا غيّي هويت لهم رُشْدا
وأن زجروا طيرا بنَحس تمرُّ بي ... زجرتُ لهم طيرا تمرّ بهم سَعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهمُ ... وليس رئيس القوم من يَحملُ الحِقدا
لهم جُلّ مالي إن تتابَعَ لي غنى ... وإنْ قلَّ مالي لم أكلفْهمُ رِفْدا

ملاحظات:

1– من الأقوال التي تكررت في كتب البلاغة القديمة قولهم:

إنَ العلة في الحُسْن الاعتدالُ.

2– ذكر بعض البلاغيين في العصر العباسي أن معظم المعاني التي سنّها الأولون بُنيت على الاعتدال ووافقت العقل الكامل والفهم الثاقب وابتعدت عن الغلو (انظر سليم: ص 20).

[10] مطلوب: ص163–164، عكاوي: ص198–199.

المراجع:

ابن المعتز =

ابن المعتز، عبد الله. **البديع.** تقديم وشرح وتحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي. بيروت: دار الجيل، 1990.

ابن منقذ =

ابن منقذ، أسامة. **البديع في نقد الشعر**. تحقيق: أحمد بدوي وحامد عبد المجيد. القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1960.

بدوي =

بدوي، أحمد أحمد. **أسس النقد الأدبي عند العرب**. ط3. مصر: مكتبه نهضة مصر بالفجالة، 1964.

الحموي =

الحموي، ابن حجة. **خزانة الأدب وغاية الأرب**. [د. م.]: دار القاموس الحديث، 1304هـ.

سليم =

سليم، عبد الإله. **بنيات المشابهة في اللغة العربية**. ط1. المغرب: دار توبقال، 2001.

شرف =

شرف، حفني محمد. **التصوير البياني**. (القاهرة): مكتبه الشباب، 1973.

عتيق =

عتيق، عبد العزيز. **علم البديع**. القاهرة: الآفاق العربية، 2004

العسكري =

العسكري، أبو هلال. **كتاب الصناعتين**. تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. [د. م.]: عيسى البابي الحلبي وشركاه، د. ت.

عكاوي =

عكاوي، إنعام. **المعجم المفصل في البلاغة العربية**. ط2. بيروت: دار الكتب العلمية، 1997.

القيرواني =

القيرواني، ابن رشيق. **العمدة**. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. ط4. بيروت: دار الجيل، 1972.

المصري =

المصري، ابن أبي الإصبع. **تحرير التحبير**. تقديم وتحقيق: محمد حفني شرف. القاهرة: [د. ن.]، 1963.

المطعني =

المطعني، عبد العظيم. **البديع من المعاني والألفاظ**. القاهرة: مكتبة وهبة، 2002.

مطلوب =

مطلوب، أحمد. **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها**. إعادة طبع. لبنان: مكتبه لبنان ناشرون، 2000.

وهبه =

وهبة، مجدي. **معجم مصطلحات الأدب**. بيروت: مكتبة لبنان، 1974.